مجلة الروائز
ISSN: 2602-5914/ EISSN: 2716-9596
المجلد:07 العدد: 01 (السنة: 2023) ص ص: [571-588]

الطب العقلي في عهد الاستعمار الفرنسي بالجزائر

Psychiatry during the French colonial era in Algeria

مبروك لعوج*

جامعة عبد الرحمان ميرة –بجاية - laoudjfr@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/02/23 تاريخ القبول:2023/03/31

ملخص:

لا أزعم البتّة أنني مؤرخ لكنني أرى من الضروري علي تسجيل بعض الحقائق التاريخية من خلال التطرّق إلى موضوع الطب العقلي أثناء الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وذلك بعد مطالعاتي الوجيزة لبعض من الكتب باللّغة الفرنسية حول الموضوع. المؤرخون يرون أن ممارسة الطب في شمال افريقيا كانت قديمة جدا تعاقبت في وقت الشعوب العربية أثناء نهضتها في العصر الذهبي كما تؤرخ العلوم الطبية. لذا تحت عنوان "ممارسة الطب النفسي في بلاد المغرب العربي" أكد البروفيسور سليم عمار، أهمية الجانب النفسي (للبيئة والثقافة الاجتماعية) عند الأطباء العرب وغير العرب في شرح أعراض المرض العقلي عنصراً مهماً في التكفل. لكنه حدث عكس ذلك عندما رافق الأطباء النفسانيون عساكر الحملات الاستعمارية الفرنسية إلى الجزائر، لقد وضّفوا أثناء ممارساتهم أفكار عرقية عنصرية نذكر على الخصوص تلك التي أتى بها "موريل Morel" الأب الروحي لنظرية "الانحراف المرضي للأنواع و/أو علم فراسة الدماغ" ومن خلالها اعتبروا "أهالي شمال افريقيا" من بينهم الجزائري، انسانا معوقاً عقلياً في بلده.

الكلمات المفتاحية: الطب العقلي؛ الاستعمار الفرنسي للجزائر؛ مدرسة الطب العقلي بالجزائر.

Abstract:

I do not claim to be a historian at all, but I consider it necessary to record some historical facts by addressing the subject of psychiatry during the French colonization in Algeria, especially, after my brief readings of a few books in French, on this subject in particular. Historians believe that the practice of medicine in North Africa was very old, succeeding the time of the Arab peoples during their rebirth in the golden age, as confirmed by historians of medical sciences. Thus, under the title "The practice of psychiatry in the Maghreb countries", Pr. Slaim Ammar writes that Arab and non-Arab doctors attach great importance to the psychological aspect (social environment and culture) in the explanation of symptoms of mental illness. However, when French psychiatrists accompanied their soldiers during Algeria's colonial campaigns, the reverse happened. During their practices, they applied racist ideas, notably those brought by "Morel", the spiritual father of the theory of "pathological

* المؤلف المرسل

deviation of types and/or phrenology". French psychiatrists took "the peoples of North Africa", including the Algerians, as mentally handicapped in their country.

Keywords: psychiatry; French colonization of Algeria; Algerian School of Psychiatry.

مقدمة:

يؤكد المؤرخون، أن ممارسة الطب في العالم العربي بصفة عامة ضارب في القدم، لذا نرى أن تاريخ العلوم الطبية رافق النهضة ورقي العلوم المختلفة عند العرب إبان عصور نهضتهم الذهبية في ترجمة العلوم وإثرائها. عند كتابتي لهاذا النص اعتمدت على العديد من الدراسات لتقديم هذه اللمحة عن تاريخ الطب العربي. قد استخلصت هذا أيضا، عن كتاب ذو تأليف جماعي تحت عنوان "ممارسة الطب العقلي في المغرب العربي" موجها أساسا إلى الأطباء النفسانيين المختصين الممارسين عبر أقطار العالم العربي. لاحظت أن هذا النص يمكن أن يضيء طريقي وأنا أغامر في هذا السياق التاريخي البعيد عن تكويني الأكاديمي الجامعي. ولهذا عندما نتكلم عن الممارسة الطبية في العالم العربي، لا ننسى أنه غالبا ما أولى للعامل النفسي بمراعاة الجانب الجسدي، أهمية بالغة في تفسير الأعراض المرضية ودراسة المعاينة الطبية.

إذ تعتبر معرفة الكائن البشري من طرف الطبيب لمحيطه الطبيعي والثقافي الاجتماعي، عنصرا مهما. يشكل بطبيعة الحال إحدى الأولويات لدى الأطباء عند عملية التشخيص و بعدها العلاج. تأثرت الممارسات الطبية عند العديد من الأطباء آنذاك بموروثات علوم الحضارات السابقة، فاكتسبوا إثر ذلك، عدة معارف علمية نذكر على سبيل المثال علم الفلك و الفيزياء وعلوم الرياضيات و غيرها. فأعطت الحضارات النوميدية منها والفينيقية والإغريقية ثم الرومانية والبيزنطية طوال قرون، مجموعة معتبرة من الأفكار العلمية المحترمة للفرد، والبعيدة كل البعد عن المعارف السطحية الذاتية. لكن الأطباء الفرنسيون في بلدان شمال افريقيا أثناء الاستعمار كانت ممارساتهم الطبية غير انسانية تماما.

1. الطب العقلي في شمال افريقيا قبل الاستعمار الفرنسي:

عرفت ممارسة الطب في شمال افريقيا تأثيرا كبيرا من خلال الأطباء الذين ظهروا في بلاد الأندلس في القرنان الثاني عشر والثالث عشر. كان أشهر الأطباء المختصين في فن العلاج بالأعشاب الطبيب الغافقي الذي عاش بقرطبة (Cordoue) مع الطبيب ابن البيطار وهو ابن مدينة مالاقة (Malaga). يعتبر هؤلاء من بين المتمكنين والأكفاء في علاج الأمراض عن طريق النباتات الطبية آنذاك. أما بالنسبة للممارسة الفعلية للطب في شمال افريقيا، تمت تاريخيا انطلاقته إلا بعد مجيء الطبيب المشهور إسحاق بن عمران، قادما من بغداد ، بلد الحضارة ورواج العلوم بشتى أصنافها، ألف هذا الأخير العديد من الكتب القيمة، نذكر على سبيل المثال مخطوط حول مرض الكآبة، الذي وصف فيه بطريقة جيدة كل حالات الإحباط النفسي من أبسطها إلى أعقدها. وصف هذا الداء من الناحية الاكلينيكية بدقة جيدة، بعيدة كل البعد عن الأفكار الميتافيزيقية حسب المعتقدات السائدة آنذاك في أذهان الناس عند تفسيرهم للمرض العقلي. يأتي بعد ذلك الطبيب ابن عمران الملاحظ البارع، والفاحص المدقق في علم الطب الذي عاصر الحقبة الزمنية أين كانت أوروبا تعاني فيه ويلات محاكم التفتيش INQUISITION من طرف الرهبان عمل في نفس الفترة التي مارس فيها العالم الكبير الذي لقب بفقيه الجسم والعقل، ألا وهو أحمد ابن الجزار الطبيب، الشاعر، و المؤرخ و المؤلف للعديد من الكتب حول: الجَوَى، التربية النفسية، تربية الأطفال...اخ من أشهر كتبه ذلك الذي حمل عنوان

"زاد المسافر"، أين تطرق من خلاله إلى المسائل الطبية لعصره مثل: مرض الصرع، الرعشة، الالتباس الذهني و الهذيان، و غيرها من الأمراض... يعتبر هذا الكتاب أول دراسة علمية عيادية في العلوم الطبية، تُرجِم في حياة صاحبه، إلى اللغة اللاتينية وكان الملك الفرنسي نابليون بونابرت يملك نسخة منه (Laoudj, 2012, p. 11).

أما في الأندلس وفي الفترة نفسها نذكر أيضا أبو القاسم الزهراوي الملقب باللاتينية ABULCASIS، حيث يعتبر من أحد كبار أطباء في جراحة الأعصاب و من بين الذين ساهموا آنذاك في مجد الممارسة الطبية بالأندلس. أما ابن زهر الأشبيلي الملقب باللاتينية ABENZOAR، صاحب "كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد" الذي طرح فيه وجها لوجه أفكار الطب الجسدي والطب النفسي، حيث يرى أن الجانب النفسي هو أسمى وأهم في العلاج. كما ألف كتابا آخر في الطب التطبيقي العيادي تحت عنوان " كتاب التيسير"، الذي تعتبر نصوصه من بين الأبحاث المبدعة في العلوم الطبية، قد ذكر فيه بطريقة دقيقة أعراض و علاج جل أمراض المخ والاختلاج"Les Convulsions".

أما ابن رشد والملقب باللاتينية AVEROES، فهو غني عن أي تعريف من مواليد قرطبة، طبيب وفيلسوف أقام حقبة من الزمن بالمغرب الأقصى، ألف عدة كتب نذكر منها مؤلف : " الكليات "الذي كان أداة بيداغوجية في تعليم طلاب علم الطب في أوروبا إلى غاية القرن الثامن عشر، كما نذكر له كذلك كتابا بعنوان "مقالة في أصناف المزاج" الذي تطرق من خلاله إلى اضطرابات المزاج في مرض الاكتئاب. أما الطبيب الميمون الملقب باللاتينية MAIMOUNIDE فهو من مواليد قرطبة، تتلمذ على يد العلامة ابن رشد، اشتهر بمهنة الطب واستقر طويلا بين مصر والمغرب الأقصى، نذكر من بين مؤلفاته كتابا شهيرا بعنوان "في نظام الصحة". يولي من خلاله أهمية بالغة، لتعريف الذات والوعي العقلي.

بينما في الجزائر، خلال القرن العاشر كان الكثير من الأطباء يمتهنون فن الطب و يلقبون آنذاك "بفقهاء النفس والبدن"، يقدمون يد المساعدة لكل عليل أشهرهم : علي بن محمد البوني (من مدينة عنابة)، عبد الله ابن الوهراني (من مدينة وهران)، ثم الإمام الطبيب عصام الصدراتي الذي عرفته مدينة صدارته الإباضية آنذاك.

لكن ابن خلدون، ولو أنه بعيد عن الطب، تعتبر معلوماته حول التنظيم الاجتماعي في ذلك العصر علما قائما يحظى بأهمية قصوى. توقع انحطاط الحضارة العربية، التي دب فيها ضعف الفكر الفلسفي و تقهقرت العلوم الطبية وغيرها، بالخصوص بعد عودة العرب للتصوف والشعوذة والممارسات البدائية. ثار بشدة على هذه الطقوس، وانتقدها، ثم أكد أن هذا التقهقر الاجتماعي قد يسهل و يعبد الطريق إلى حد ما لكي تنهال المجتمعات في سياق التخلف ثم تصبح مطية للهيمنة الاستعمارية. فهم المستعمر الفرنسي هاته الظاهرة وأدرك أن شعوب شمال افريقيا ما زالت تحت وطأة الهيمنة العثمانية، فانصب في دراسة طريقة سانحة تسمح له بالتدخل المباشر على هاته الشعوب المغلوبة على أمرها. فأعلن تدخله الحربي ثم استولى على خيراتها فكانت الجزائر من بين الدول التي أخذت نصيبها من عمليات الاحتلال الفرنسي في سنة 1830.

حتى الأطباء العسكريون اللذين رافقوا جيوشهم على متن البواخر الحربية الاستعمارية، من أجل المساعدات الطبية الإنسانية، لن يأتوا من أجل نشر المبادئ الانسانية. و علاج المرضى بل كان مجيئهم من أجل دراسة ميدانية استراتيجية لسلوكيات شعب أنهكته الغزوات الاستعمارية، كان آخرها كان هيمنة الإمبراطورية العثمانية. فأدرك الجيش الفرنسي أن الشعب الجزائري لا حول و لا قوة له، ولن تقدر عن حمايته الدولة العثمانية. لهذا ، ارتأينا أن نقوم بدراسة وتشريح هذه النبذة التاريخية حتى يعرف كل مواطن جزائري، كيف أذلتنا وأهانتنا فرنسا وأطبائها المختصون في الطب العقلي من خلال كتاباتهم حول الأهالي (L'indigène) وتقاريرهم الطبية العنصرية الموثوقة حبرا على ورق (Laoudj, 2012, p. 15).

عرف شمال افريقيا وبلاد الأندلس في القرنان الثاني عشر والثالث عشر، أشهر الأطباء، أمثال محمد الشريف الصقلي من تونس، وكتابه تحت عنوان: "المختصر الفارسي"، دون أن ننسى المختصين في فن العلاج بالأعشاب ونذكر على سبيل المثال الغافقي الذي عاش بقرطبة (Cordoue) ثم لا ننسى ابن البيطار ابن مدينة مالاقة (Malaga) المدينتين السياحيتين الاسبانيتين حاليا. كانا هؤلاء العلماء يعتبران من بين المتمكنين والأكفاء في العلاج بالنباتات الطبية في القرون الوسطى، تتلمذ عنهم الكثير من محبي فن الطب.

أما المغرب الكبير، فلم يعرف انطلاقته في تعاطي مهنة الطب إلا مع مجيء الطبيب المشهور إسحاق بن عمران، قادما من مدينة بغداد العراقية، بلد الحضارة ورواج العلوم بشتى أصنافها. له العديد من المؤلفات الطبية القيمة، منها مخطوط حول مرض الكآبة، الذي وصف فيه بطريقة جيدة كل حالات الإحباط النفسي من أبسطها إلى أعقدها. كان وصفه جد إكلينيكي للمرض، بعيدا كل البعد عن أفكار المس بالجن و الشياطين بحسب المعتقدات السائدة آنذاك في أذهان الناس عند تفسيرهم للمرض العقلي.

طبعا لم يأت المستعمر في زيارة تفسح، لكنه جاء من أجل البطش و النهب لخيرات المنطقة بأكملها. حتى الأطباء العسكريون اللذين رافقوا جيوشهم على متن البواخر الحربية الاستعمارية، من أجل المساعدات الطبية الإنسانية، لن يأتوا من أجل نشر المبادئ الانسانية. بل كان مجيئهم من أجل دراسة ميدانية استراتيجية لسلوكيات شعب أنهكته الغزوات الاستعمارية، كان آخرها كان هيمنة الإمبراطورية العثمانية. الجيش الفرنسي أدرك جيدا أن الشعب الجزائري لا حول و لا قوة له، وليست له أية حماية من العثمانيون يمكن احتلاله بسهولة. حتى الأطباء المختصين في الطب العقلي، كان لديهم دورا مهم في ذلك، استنجدوا بنظريات غير معقولة علميا؛ أساسها العنصرية والحط من قيمة المستوطن و حاولوا ان يصفوه من بين أسفل الكائنات الحية وجودا على الأرض.

2. مورو دي تور MOREAU DE TOURS والطب العقلي الاستعماري في الجزائر:

يشهد التاريخ أنه في شهر مايو من عام 1830غادر الأسطول الحربي الفرنسي مدينة تولون Toulon الفرنسية بقيادة شارل العاشر، متوجها لشن الحملة الاستعمارية على الجزائر وغزو مدن شمال إفريقيا. في 5 جويلية 1830، استولي الجنرال كونت دي بورمون Compte de Bourmont على مدينة الجزائر بعد معارك ضارية، سقطت فيما بعد المدن الجزائرية الأخرى الواحدة تلوى الأخرى تحت الوحشية الاستعمارية الفرنسية. عندما استقرت الجيوش العسكرية الفرنسية الغاشمة التحق بها تدريجيا، جمهرة من العمال الباريسيين وفلاحي الجنوب الفرنسي يتراوح عددهم حسب المؤرخين بين 2000 إلى 3000 مستوطن حتى أن تمت عملية الاستيطان ما بين سنتي 1848-1852 فوق أرض الجزائر. فأنشئت مستوطنات فلاحيه استقطبت أناس كانوا يلقبون في باريس ب"الغير المرغوب فيهم"، تحت تعزيز الاستيطان جرى اللجوء إلى حملات ترحيل متعاقبة لكي يرجعون الجزائر مقاطعة فرنسية.

هذه الفسيفساء من المستوطنين كانوا من بين ملاك الأراضي، الأغنياء من الفرنسيين الأصليين و من فلاحين فقراء جنوب فرنسا ثم بعض الألزاصيين ومن بؤساء الحوض المتوسط: إسبانيين، منفيي ثورة 1848، منفيي كومونة باريس Les communards، المالطيين، الإيطاليين وغيرهم... هؤلاء جميعا شكلوا تدريجيا مجتمعا راح يؤكد انتماءه "

للجزائر الفرنسية" طاردا السكان الأصليين من أفضل أراضيهم، مواصلا زرع الرعب غير المحدود في نفوس السكان الأصلين إلى غاية تطبيق قانون "الأهالي" عام 1881.

القانون الذي بسط شكلا من التميز العنصري على مدى عشرات السنين. هكذا بدأ العنف الاستعماري كنظام قائم على "الاستيطان والإبادة" كقاعدة لا رجعة فيها لتصفية كل حسابات المواطن الأصلي. حتى الأطباء المختصون في الطب العقلي شاركوا عساكرهم في ترخيص نظرياتهم العنصرية. أول نص أرسى ما يسمى بالطب العقلي الاستعماري، كتبه طبيبا ليس ككل الأطباء يدعى مورو دو تور Moreau De Tours هذا النص، يعتبر شهادة ميلاد تاريخية لتيار فكري شامل، اشتركت في تجاهله كل نظريات التحليل النفسي المعتمدة و المطبقة آنذاك في البلدان الأوربية. وقد لاحظ مورو دو تور، أن المرض العقلي يحظى بقبول كبير في المغرب الإسلامي. حيث يرى أن سبب تفسير هذه الظاهرة هو حسب رأيه ينحصر في المناخ والمرجعية الدينية للمسلمين، ويرى أيضا أن هذه العوامل تؤثر على وظائف الدماغ وتساعد بدرجة كبيرة على ظهور الأمراض العقلية لدى المجتمع المغاربي. ثم يلتمس أن عقلية المواطن الأوروبي تعتبر النقيض الشرعي لعقلية المغاربي (Moreau, 1843).

هذا هو الإطار الفكري الذي ذهبت فيه أبحاث الطب العقلي الاستعماري الفرنسي تؤكد أن الأهلي ذو مستوى عقلي متدني، ويعتبر إنسان غير ناضج فكريا و عكس ما هو عليه المواطن الأوربي. هؤلاء الأطباء العسكريون العاملين تحت الراية الاستعمارية أغلبيتهم يمجدون القبعة العسكرية الاستعمارية، نسوا مئزرهم الطبي الإنساني المبدأ. لا يوجد آنذاك هياكل طبية مختصة في الطب العقلي على الأراضي الجزائرية، فأغلب المرضى من أوربيين وجزائريين يوجهون مباشرة إلى المستشفيات الفرنسية. في سنة 1845 أبرمت اتفاقية بين مدينة الجزائر ومستشفى المرض العقلي بمدينة مارسيليا لاستقبال الثائرين الأحرار، الذين نجوا من الترحيل الإجباري نحو جزر" الكايان" Cayenne التي اعتبرتهم السلطات العسكرية كأشخاص يعانون من "أمراض عقلية ".

يؤكد المؤرخون أنه بين سنتي 1903 و1909، كان يجري توجيه المرضى عقليا من الجزائريين والأوربيين إلى ألبي (تارن) ثم ليمو (أود) ثم سانت ألبان (لوزير) بفرنسا، بالنسبة للمنحدرين من نواحي الغرب وهران، وإلى سان بون بالنسبة للمرضى المنحدرين من النواحي الشرقية لقسنطينة، وكان يجرى عليهم العديد من الفحوصات التجريبية تحت غطاء نظريات التفوق العرقي العنصري. هذا ما نقرأه في النصوص التي كتبت من طرف هؤلاء الأطباء.

نذكر ما أكده الطبيب ج. م. باغ Jean Marie Begue الذي يرى أن "الوظيفة العادية لمخ الأهلي هي وظيفة مرضية" (Begue, 1939)؛ متأثرا بنظرية فراسة الدماغ Phrénologie التي عرفت رواجا كبيرا في الأوساط العلمية الفرنسية بداية القرن التاسع عشر. حيث أكد قائلا: "إن المختلين عقليا من العرب هم مرضى على درجة كبيرة من العنف والخطورة، ويستلزم وضعهم في زنزانات سيئة ومعالجتهم كحيوانات شرسة. عندما يشفون، نسبة الوفيات السنوية بينهم قد تبلغ 49 %، بينما عند المختلين الأوربيين تقدر بين 13 و14 %". جاء هذا في نص طبي من النصوص العنصرية خلال الجلسة العامة للجمعية الطبية النفسية سنة 1873" (Constants, 1873, p.492).

بينما زميله الطبيب ميلهون Meilhon الذي كان يمتهن آنذاك بمستشفى الأمراض العقلية بأكس أُن بروفانس Ex-en Provence، نشر سنة 1896 دراسة حول "الاختلال العقلي عند العرب، دراسة مقارنة في تصنيف الأمراض" أين

كوفئ على هذه الدراسة سنة 1891 من قبل أكاديمية الطب الفرنسي على درجة امتياز، أكد فيها نفس مسار أفكار سابقيه، يقول أن "السمة الغالبة في المرض العقلي عند العرب هي جنوحهم إلى العنف"(Meilhon, 1869). في سياق هذه الأفكار، سارت مدرسة الجزائر الطبية على هاته النظرية، فراحت تؤكد وتبرهن حسب مفاهيمها الضيقة والغير علمية أساسا، على أن التفوق الذهني أكبر عند الأوربي مقارنتا مع المواطن الأهلي "L'indigène".

ذلك التصور الخاطئ، تلخص في فكر مورو دو تور ومن تتلمذوا على يده من أطباء، حتى الاعتقاد الديني للإسلام لم يمنع من انتقاده: "الإسلام هو في نفس الوقت وقاية وعلة تشجع على المرض العقلي بوضعه لحواجز وقائية على حساب التنكر لمفاهيم الفردانية والحرية التي تميز الثقافة الغربية". أما ليفيه Levet، هو الآخر طبيبا في مستشفى الأمراض العقلية بفرنسا كان يعمل بـ Ex-en provence، ذهب يقول أنه لا يوجد تكفل طبي نفسي ممكن دون معرفة حد أدنى لثقافة المريض. بينما الطبيب بواجيه Boigey، مؤلف مقال نشر في "الصحافة الطبية" بتاريخ 21 سبتمبر 1907، يندد فيه بالتصميم السيئ لمؤسسات العلاج التي أنشأتها الإدارة الفرنسية في الجزائر، ويرى أنه في أذهان العرب "... الحراز والشوف أو العراف مؤتمنين على الحقيقة، عندهما التمائم (الحروز عند العامة) وهم أفضل من يداوي؛ أما الطبيب فلا يملك إلا الكذب..."، ولهذا يرى أن الأهلي لا يعترف بالطب العصري(Boigey, 1908).

خلال المؤتمر الثاني والعشرين لأطباء الأعصاب المختصين في الأمراض العقلية الناطقين باللغة الفرنسية المنعقد في تونس عام 1912 أكد الأستاذ ريجيس Régis من خلال تدخل له، على أن الطبيب المطلع ليس فقط الذي يعرف اللغة العربية، بل هو الذي يراعي عقلية العربي، ويعرف جيدا عاداته وتقاليده. تلك هي الطريقة الوحيدة القادرة عن جدارة بمعرفة المريض العقلي و مدى تأثيرها على طرق العلاج. المهم، أن مدرسة الطب العقلي بالجزائر، واصلت الترويج لأطروحة أن "الأهلي" L'indigène يعاني من اضطراب في نشاط المخ بفعل الضغط الدموي، ذلك ما يدفع إلى "نقائص في وضائف الدماغ". هذه المزاعم المعرفية للأسف الشديد هي التي عبَّدت الطريق سنة 1939، للنظرية "البدائية" المسماة بـ Le primitivisme.

هذه النظرية هي التي اعتمد عليها أطباء الطب العقلي الفرنسي، خاصة عند تفسيرهم لسلوكيات وعقليات الجزائري. حيث توصلوا لوصفه ككائن بشري خطير غير قابل للحضارة ودوني الأفكار، يتميز كما يتهيأ لهم بالكسل، والقدرية، وانحطاط النسل، والعدوانية الإجرامية التي يزيد من حدتها الدور المرضي لدينهم ومعتقداتهم. هذه الأفكار نراها تقطر حقدا عنصريا، في أبحاث الأستاذ مورو دو تور، بل أيضا عند تلاميذه: فورناري Furnari، كوشير Kocher، كوستانت Constants، ميلهون Meilhon وبواجيه Boigey... وغيرهم.

إن نظرية انحطاط النوع التي أعدها موريل Morel عام 1857، بنيت على مبدأ "انحراف مرضي للنوع البشري"، استعملت في الميدان لمدة طويلة وتوهم الأطباء العسكريون وغيرهم أنها صالحة علميا للتطبيق على الأهلي. لكنه بعد حوالي عشرين سنة ذهب الطبيب مانيان Magnan سنة 1875، ينتقد نظرية تطور الأنواع في بعدها الوراثي. حيث أكد أن هناك مفاهيم أخرى همشت، يذكر على الخصوص عوامل الصراع من أجل الحياة والظروف الاجتماعية التي تؤثر بصفة مباشرة على الصحة العقلية. الطبيب مانيان ثار على أبناء جلدته بأفكار مناهضة لهم واستطاع أن ينسلخ من النظرية البدائية التي تشبعت بالداروينية حتى و ولو أنها تجلت كالنور في ظلام علمائهم. حتى داروِين Ch. Darwin

نفسه، كان قد زعم وجود أجناس دونية: "كل من شاهد متوحشا في بلده الأصلي لا يشعر بأي خجل من الاعتراف بأن دم كائن دوني يجري في عروقه". أعتمد عنف المواطن الأوروبي تحت غطاء الداروينية الغالتونية Francis Galton، على أنها حقيقة عرقية سامية من جميع وجهات النظر.

لم يكن لأطباء الأمراض العقلية سوى أنهم أعادوا إنتاج الصدى لهذه النظرية وذهبوا يزعمون لسنين طويلة أنه: "يجب أن نقول صراحة، إن الأجناس السامية لها حق التصرف في الأجناس الدونية." هذا ما صرح به مؤسس مدرسة الجمهورية جول فيري Jules Ferry سنة 1885. لن يبالون بعض المثقفين الفرنسيين أن تلك الأجناس التي لقبوها بالأجناس "الدونية" هي التي دفعت رغم ارادتها الثمن الباهض خلال الحرب العالمية الأولى. لقد عززوا الدروع الحربية جنبا لجنب مع الجيوش الفرنسية المنهزمة من طرف النازية الهتليرية أثناء المعارك الشرسة. إن الذين لقبوا بالمختلين عقليا والمنحطين فكريا، أخذتهم فرنسا الاستعمارية بالقوة وزجت بهم إلى ميادين المعارك دون أن يستشاروا، فكم أشاد التاريخ ببطولاتهم وشجاعتهم أثناء الحروب. قتل منهم حوالي 28000 من بين 173000 جندي جزائري، وأصيب حوالي 57000 بإعاقات جسمية وحركية متفاوتة الخطورة، عاشوا مجزرة حقيقية لم تكن لهما فيها لا ناقة ولا جمل.

حينما كان الجزائريون يحاربون جنبا لجنب مع أفراد الجيش الفرنسي في ميادين الحرب بـ Verdun الأقدام السوداء بالجزائر تواصل نكدها على الأهالي و الزج بهم في السجون. ذلك ما أكده أيضا بحروف انتقامية نابليون آنذاك في رسالة وجهها إلى حاكم الجزائر الجنرال "ماك ماهون"، تندرج ضمن فكرة استعباد "الأهالي" بالقوة. لست بحاجة للتعليق عنها، لكن نترك القارئ هو الذي يحكم على هذا الجزء من النص الذي اخترناه: " إنه عندما تكون طريقتنا في حكم شعب مغلوب على أمره، بالنسبة للخمسة عشر مليون من العرب المتناثرين في مناطق أفريقيا وآسيا، محل حسد؛ وفي اليوم الذي ستبدو لهم قوتنا المنتصبة على سفوح الأطلس بمثابة تدخل لعناية الأهلي وإعادة إنهاض جنس منحط؛ في ذلك اليوم، سوف يدوي مجد فرنسا من تونس إلى الفرات، ويضمن لبلدنا ذلك التفوق الذي لا يمكن أن يثير غيرة أحد، لأنه يستند ليس فقط على الغزو، بل على حب الإنسانية والتقدم ...".

3. مدرسة الطب العقلي الاستعماري بالجزائر: أقوال مؤلمة

أنطوان بورو Antoine Porot، هو أحد الوجوه البارزة في تاريخ الطب العقلي الاستعماري الفرنسي بشمال افريقيا، تم تعيينه في تونس حيث أنشأ أول مصلحة للأمراض العقلية يستقبل فيها المرضى المصابين بشتى أنواع الاضطرابات العقلية للمعاينة والمعالجة. أنشأ هذه المصلحة سنة 1912 بمناسبة المؤتمر الثاني والعشرين لأطباء الأعصاب الناطقين بالفرنسية ثم غادر المحمية التونسية مقابل تعيينه سنة 1916 كرئيس الأطباء في مركز طب الأعصاب بالناحية العسكرية لـ Régiment 197ème بالجزائر. مارس مهنته بصفته أستاذ طبيب في الأمراض العصبية و العقلية على مستوى كلية الطب بالجزائر العاصمة، و أثناء هاته الفترة، أنشأ العديد من المصالح الطبية العقلية عبر المدن الجزائرية الكبرى، من بينها كان وراء بناء مستشفى مدينة البليدة المدعو: Joinville آنذاك، يعتبر المؤسس الرئيسي لمدرسة الطب العقلي بالجزائر العاصمة. أشرف على تكوين العديد من الأطباء سرعان ما نال مرتبة رائدة ونفوذا في الوسط الطبي آنذاك، سواء في "الجزائر الفرنسية" أم خارجها. بدأ أنطوان بورو يهتم عن كثب بالأمراض العقلية عند "أهالي شمال

إفريقيا" Les indigènes nord africains فتوالت كتاباته عن ذلك حتى أن ظهر له نصا مميزا يؤرخ فعلا تأسيس نوعا خاصا و عنصري للغاية بالنسبة للمواطن الجزائري المستعمر في بلده. ظهر هذا النص الطبي الحقود سنة 1918، كتبه في "حوليات الطب النفسي" Les annales médico-psychologiques. ننشر جزءا من الذي ظهر بعنوان "ملاحظة حول الطب العقلي للمسلمين" الذي يمثل حقيقة أفكار لا تليق بمقام طبيب في هذا المستوى وغير الانساني.

يبدو أنه تناسى المبادئ الإنسانية عندما نزع مئزره الطبي و لبس البذلة العسكرية و هو يؤكد بالحرف الواحد أن:" المساهمة العسكرية الهامة المطلوبة منا لإفريقيا الشمالية، وهي تجنيد أفواج كاملة عبر الاستدعاء، فوضعنا أمام كتلة حقيقية من الأهالي، هي كتلة لا شكل لها، مجموعة من البدائيين في غاية الجهل والسذاجة لأغلبيتهم، شديدي البعد عن عقليتنا وعن ردود أفعالنا، لن تدخلهم أدنى هواجسنا الأخلاقية، ولا أدنى انشغالاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وللوهلة الأولى بوسعنا قياس كل المقاومة المعنوية لبعض النفوس البسيطة، والقوة الكبيرة لهذا النوع هو الفقر العقلي والانحرافات المطبوعة بالسذاجة والانقياد الأعمى. إن تحديد معالم علم النفس الخاص بالمسلمين ولو في خطوطه العريضة، مسألة عويصة بسبب الميوعة الكبيرة والتناقض في العقلية التي نمت في محيط شديد الاختلاف عن محيطنا. تحكمها الغرائز الموغلة في البدائية ونوع من الميتافيزيقا الدينية والقدرية المتجذرة في كل أفعال الحياة الفردية والحياة الجماعية"(Porot, 1918).

وصف أنطوان بورو الأهالي بأبشع النعوت، فقال أنه ينتمي إلى "كتلة بلا شك بدائية" تمتاز بقدر كاف من "الجهل والسذاجة " و"الغرائز البدائية"، يتصف "بالفقر العقلي والسذاجة والانقياد الأعمى". هاته النعوت الهاتفة بالعنصرية، رددها أتباعه من المختصين نذكر على سبيل المثال الدكتور بواجي Boigey الذي كتب في إحدى مقالاته الطبية العنصرية يروج أن: "الحياة العاطفية تدنت إلى أدنى مستوى وانحصرت في دائرة ضيقة من الغرائز البدائية؛ لا وجود للاندفاعية تقريبا هذه هي أبرز المظاهر عند الأهلي، لا يقلق أبدا، سلبيته ليست نتيجة خضوع حكيم؛ إنها موقف عفوي، غير مكترث بالمستقبل إلى حد كبير، نسبة الحماقة العقلية شديدة الانتشار بين الجماهير الجاهلة التي لا تجد في "بلادها" ما يحثها على اليقظة الفكرية. الأهلي المسلم يميل كثيرا إلى الحياة السلبية عنده. كما قلنا فإن الشخصية الجامدة تخنق الشخصية المتحركة، عدم اكتراثه بالمستقبل، غياب التوقع لديهم يعرقلهم عن السير في طريق التقدم الجماعي، يتجلى هنا بصفة فردية ويضعهم في جمود مرضي بائس. بصفة عامة يتميز فكر الأهلي بالسذاجة والانقياد الأعمى. إنه مجبول على الخضوع والطاعة الدينية. بالإضافة إلى هذا هو ضحية كل الخزعبلات التي تمثل الأشكال الفَظَّة لتَدَيُّن البسطاء. المقاومة الفكرية تتم في شكل عناد شرس منيع، يختلفا عن الانقياد الحركي المتعدد الأشكال، الغني أحيانا الذي نجده عند المتمدن وعند الأوروبي" (Porot, 1918).

حينما كان الأهلي L'indigène يخضع لكل أنواع القهر اللاإنساني، واصل أنطوان بورو في هذيانه التام وكله قناعة واعتقاد ويقين قائلا أن: "المسلم الجزائري ساذج وعنيد، وأكثر من ذلك يزعم أن "هذه الخلفية من الضمور العقلي مع سذاجة وعناد تقرب من مواصفات الطفل، صبيانيته العقلية تختلف عن أطفالنا، بمعنى أننا لا نجد فيها ذلك الحس الفضولي الذي يحثهم على طرح الأسئلة، على تساؤلات لا تنتهي، تحثهم أفكارهم على مقارنات وعلى تشبيهات غير متوقعة متزايدة الأهمية، كتمهيد حقيقي للفكر العلمي. لا شيء من هذا القبيل لدى الأهلي، حتى لو كان ذكيا، لا شراهة علمية،

ولا أفكار عامة لديه. ومجرد قياسات بسيطة هي أحيانا بلهاء في نتائجها تكفيهم، ويتشبثون بها بعناد بعيدا عن أي حس بالظروف" (Porot, 1918). ثم يتلوه في جهل علمي تام تلميذه الفذ، من خلال نص أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الطب العقلي سنة 1926 ألا و هو الدكتور س.د.آري C.D.ARRII التي نشر نصها في "الحوليات الطبية النفسية".

في مجلة Les anales médico-psychologiques سنة 1932 بعنوان: "البواعث الإجرامية لدى الأهلي الجزائري وعواملها" يقول فيها بالحرف الواحد ما يلي: "في النظام السيكولوجي، هناك البلادة الذهنية الواضحة، المصحوبة بالسذاجة والانقياد، والميول إلى العناد وإلى المشاكسة الذهنية التي تجعل تصويب الحكم أو المنطق الخارجي صعبا، والهواجس ذات الطابع المعيشي الخامل أو الغريزي التي تتفوق على النظام العاطفي والعقلي". أما في النظام الاجتماعي، هناك ضعف الحس الاجتماعي في أشكاله الغيرية، احتقار الحياة البشرية، هشاشة الحس العائلي، كل هذا مقابل الغريزة الشرسة تحت أحد شكليها المعتادين: المنفعة المالية والحسد" (Porot & Arrii, 1932).

أما في سنة 1935، وبالخصوص في مدينة بروكسل وبالتحديد بمناسبة المؤتمر التاسع والثلاثين لأطباء الأمراض العقلية الناطقين باللغة الفرنسية، تدخل أنطوان بورو حول موضوع Von Boagart الهستيريا ردا على مداخلة فون بوقارت قائلا: "إنني أنظم كليا إلى تفسير المقرِّر للظواهر الهستيرية: تحرير النشاطات العليا لصالح النشاطات الأكثر بدائية. إنني أرى فيها حجة وبرهانا على الطابع الامتثالي Pithiatique عند أهالي أفريقيا الشمالية... الأهلي، بوصفه معتوه عقلي كبير، نشاطاته الذهنية العليا ضعيفة التطور، هو بالخصوص كائن بدائي، حياته بالأساس خاملة وغريزية، يتحكم فيه دماغه المتوسط diencéphale. أدنى صدمة نفسية تترجم في استعراضات نصف دماغية أكثر منها ردود أفعال نفسية حركية معقدة أو متباينة" (Porot, 1935). ثم هناك نص آخر تم فيه تأكيد أفكار بورو ألا وهو الطبيب جان سوتار JEAN SUTTER يقول فيه أن:

"المرض الاندفاعي للأهلي ينحصر تقريبا في الاندفاع الغريزي؛ إنه ينفعل بسهولة بسبب الخوف، الغيرة، الغضب، المرح لا مكترثا ولا مباليا، الطابع الغريزي لهذه التفريغات العاطفية باد للعيان بسبب افتقارهم للدقة والمفارقة، نجد عندهم نوعا من قانون الكل أو لا شيء، لا ينتج رد الفعل قبل أن تبلغ الإثارة عتبة معينة وما أن تنتج حتى تتجلى دفعة واحدة بحدتها القصوى" (Berthelier, 1994) .

هذه الأفكار المنفصلة تماما عن الواقع الطبي العلمي المألوف، التي تأصلت وترعرعت في أذهان كل الأطباء العسكريين الفرنسيين المختصين في الأمراض العقلية، حتى أن أصبحت لديهم مرجعا مفضلا لتصنيف الأعراض المرضية، من ما جعل كل التفسيرات المرضية العقلية لديهم يبررونها بالتفوق اللامشروط عند الأوربي. طبعا، إنها أفكار وهمية صنفوا بها "الأهلي" كمخلوق متميزا ذو نقائص كبيرة، ينتمي أساسا إلى السلالة الدنيا من البشر. من المدهش جدا، أن أنطوان بورو توصل باليقين أن الانسان الأوربي الأبيض أعلى درجة من الوعي البشري على الأهلي. حتى الطبيب جان ماري سوتار، المتتلمذ عن أبيه الرمزي أنطوان بورو يذهب معبرا عن ما يدور في وجدانه من كراهية و حقد على الأهلي حيث يقول بأن: "الجزائري يفتقر إلى قشرة الدماغ أو بصورة أدق نلاحظه أيضا عند الفقريات الدنيا الفاقدة للوظائف الدماغية القشرية وإن وجدت فهي شديدة الهشاشة، وهي أصلا غير مندمجة في حركية الوجود... إن تردد

المستعمر في إيكال مسؤولية للأهلي ليست إذن من قبيل العنصرية أو الأبوية، بل هي ببساطة تقدير علمي للإمكانيات البيولوجية المحدودة للمستعمر" (Sutter, 1949).

يضيف أيضا أن الأهلي متبجح، كذاب، لص ،كسول ومعتوه يمتلك اندفاعات قاتلة لا يمكن توقعها والتحكم فيها و لقد استمر هذا الوصف من طرف الأطباء لكافة المغاربة حتى نهاية الخمسينيات. لا شك، أن هذه الأفكار المفزعة والغير علمية الأصل هي التي دفعت الطبيب الفذ فرانس فانون Frantz Fanon للتمرد والنضال ضدها من جهة وضد استعمار الشعوب بصفة عامة من جهة أخرى.

4. الطب العقلي الاستعماري: الأطروحة ونقيضها

"إن العربي يَطْرَب إلا لشيء، يحب التشكي، وهو يثق في الطبيب، عنده ثقة طفولية هو متبجح ومتملق، جبان، كذاب. ذو مزاج عاطفي يتعلق بمن يقوده، هو قادر على الخداع والكذب؛ ينقاد إلى التأثير الخطابي سواء كان سلبا أو إيجابا، هؤلاء الناس عبارة عن أطفال كبار يملكون من الأطفال كل الخصال والعيوب في أقصى تجلياتها. لا يكترثون بالوقت الذي يمر وبالمستقبل، أحيانا هم دهاة ولصوص، لكنهم اندفاعيون خاصة وانقياديون إلى أعلى درجة". هذا الكلام يعود إلى سنة 1927، صدر في سلسلة من الملاحظات الغير السيكولوجية بعد محاولة بناء نموذج خاص للأهلي الى غاية مجيء أطباء ذو أصول جزائرية، درسوا في المدارس الفرنسية ثم ثاروا على أطروحاتهم العنصرية. نذكر على سبيل المثال أطروحة الطبيب المدعو بن خليل سنة 1927 لنيل شهادة دكتوراه في الطب.

ذهب يصرح علنا منتقدا لأفكار من سبقوه أن علم الأمراض العقلية لا يبين عند الأهلي أية مفارقة خاصة، سواء من وجهة النظر المتعلقة بالأعراض أم المتعلقة بالتطور المرضي. لا تشكل خاصية الفرق حسب رأيه الا في الجانب الديني، أيضا في العادات وفي ظروف المعيشة و لا يوجد أي فرق بين دماغ الأهلي ونظيره الأوربي. الجهاز العصبي للأهلي و الأوربي لا يختلفان في البنية التشريحية و لا حتى من الناحية الذاتية فلهذا تعتبر جل النعوت الدنيئة التي أسندت ظلما للجزائري، هي خاطئة جملة و تفصيلا. لكن الطبيب كوستيدوا Costedoat الأستاذ الرائد خريج المستشفى العسكري فال دو غراس Val De Grace، في مقال له نشر سنة 1934 بعنوان "الاختلالات العقلية عند الأهالي المسلمين في أفريقيا الشمالية"، يؤكد صحة الأطروحات السابقة التي تتجاهل العامل الثقافي ويرى أن: "الطبيب الذي لا اختصاص له في أمور المسلمين، ويسعى إلى تحليل عقليات الأهالي، أكانت مرضية أم لا، يصطدم بثلاث عراقيل أساسية:

- جهله باللغة واللجوء إلى خدمة المترجم الذي يلخص، أكثر مما يترجم.

- جهله بالمعتقدات والتقاليد المحلية الخاصة بكل ناحية. وهي أخطر عندما يتعلق الأمر بشمال أفريقيين من الفرنسيين.

- الغياب المعتاد لثقافة أهالي الأرياف..." (Costedoat, 1934).

لقد تميز كوستيدوا عما سبقوه نوعا ما في الأفكار العنصرية كان عليه زملائه الأطباء. حقا، انتقد بشدة هذه الفكرة، قائلا لا توجد خصوصية نفسية عند الأهلي ويلاحظ أن الكلمات التي يستخدمها الجزائري تختلف عما ألفه الأوربي. عندما تطرق لمسألة الهستيريا، فركز عن بعض الخصوصيات بأسلوب منطقي كبير، حيث قال: "الهستيريا

منتشرة عند الأهالي أكثر مما هي عند الأوربيين لأنه يوجد عند الأوائل عدد أكبر من المعتوهين. يحدث دائما أن يكون استفحال النشاط الخرافي للطفل عند الكهل متصلا بعُتْهٍ عقلي... بالإضافة إلى ذلك فإن الأهالي يشعرون بدونية تجاهنا. وبما أن الكذب هو فن الضعفاء، سواء وعوا ذلك وأرادوه أم لأسباب مرضية فإن البعض منهم، كما نعرف، يتنكرون حتى للبداهة ويصرون على البقاء في إنكارهم كما يفعل عادة الأشخاص الأكثر حماقة" (Costedoat, 1934).

في آخر المطاف اقتنع كوستيدوا Costedoat بفكرة ضرورة معرفة المريض ضمن مجاله الطبيعي وضمن ثقافته للتمكن من علاجه علاجا أفضل. فوافق على إدخال المرجعية الثقافية للمريض و يعتبر أنها عامل حاسم في تحديد أعراض المسار العقلي سواء عند "الأهالي" أم عند الأوروبيين. فكانت لهذه الأفكار قفزة نوعية في العلاج و عدم إهمال الجانب الثقافي الاجتماعي عند التشخيص و المعالجة. ومن هنا يؤكد أنه لا توجد اختلافات بين الأهلي والأوروبي، إلا من ناحية العادات والتقاليد والدين واللغة.

5. تاريخ الطب العقلي الاستعماري، الكيل بمكيالين

الحرية La liberté، الأخوة La fraternité والمساواة L'égalité، تعتبر شعارات عزيزة على كل فرنسي، لكن أن مدرسة الجزائر للطب العقلي تنكرت تماما لهذه العبارات و لم تكن إلا مصطلحات للتغليط و السطو على خيرات الجزائر. و لن تمنع هاته الشعارات من تأييد أطروحات عنصرية استبدادية ترأستها " نظرية التفوق العرقي" صنيعة الهيمنة على الشعوب. كرسها المستعمر لسنين عديدة وبررها عن طريق النظرية الداروينية- القالتونية. لقد شكل الانحطاط العرقي والهيكل العضوي للبنية المورفولوجية La structure morphologique العامل المشترك في الملاحظات و المؤلفات العلمية المزعومة المشبعة بالعنصرية ضد أهلي شمال إفريقي L'indigène nord-africain. العلوم الاجتماعية التطبيقية، تأثرت كثيرا بهذه النظريات العنصرية المتهافتة لكن في الواقع، أكدت عن عدم صلاحياتها وتجاوزت مصداقيتها العلمية. عندما أرسى إميل دوركايم Emile Durkheim قواعد علم الاجتماع العصري ثم بعد ذألك علوم العراقة L'ethnologie التي انتشرت مع ترجمة أعمال مالينوفسكي Malinowski.

أخذ الطبيب النفساني بيار جانيه Pierre Janet يعمم نظريته حول علم نفس الأعماق، جاعلا منها ديناميكية تفسيرية لذاتية الإنسان. ثم أخذت السيدة ماري بونابرت Marie Bonaparte تعمل في ترجمة أولى نصوص الطبيب النفساني سيقموند فرويد Sigmund Freud.

للأسف الشديد، كل هذه الدراسات والبحوث في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية لم تمنع أطباء الأمراض العقلية الفرنسيين في الجزائر للصيرورة في تزمتهم تحت غطاء علم الأعراق، على رؤية المواطن الأهلي من أضيق نافذة علمية. بل كل هذه المعطيات الفكرية داخل و خارج فرنسا لم تحثهم على التراجع عن أفكارهم البدائية والرفع من مستواهم الفكري إلى مصب المبادئ العليا للإنسانية. تحت التأطير الطبي العنصري المعروف باسم :" الطب العقلي الاستعماري" عزز الأطباء خلال مئات السنين النظرة، أن الأهليL'indigène هو مادة خام للمرض العقلي ومعتوها بالنسبة للحضارة الأوروبية. هذا ما أكده نص إميل ماسكيراي Emile Masqueray تحت عنوان "تكوُّن المدن عند سكان الحضر في الجزائر" وأيضا نص أرنولد فان جينيب Arnold Van Gennep عبر "دراسات في العراقة الجزائرية" Etudes

d'ethnographie algérienne نشرها عام 1911. اكتفى من خلالها بتبرير المسار الاستعماري، مظهرا بصفة نهائية أن الأهلي كائن مختلف وغريب ومتوحش: "المجتمع الجزائري غير مؤهل، في المقابل الفرنسي يمثل النموذج الوحيد القابل للتطور وهو ما يعني أن على الأهلي أن يخضع لمن ينتظر منه كل شيء... إن فرنسا لا تنشر فقط القيم الجديدة بل تنشر أدوات العالمية المتعالية" (Van Gennep, 1911).

في السياق نفسه، واصل زميلهم باردينا Bardenat، في مقال نشره سنة 1948 بعنوان "الإجرام والانحراف عند أهالي الجزائر"، يصر بالقول أن: "نسبة المختلين الخطيرين التي يتم الحجر عليها في مستشفيات الأمراض العقلية في الجزائر تفوق ثلاث مرات نسبتها عند الأهالي أكثر ما نسبتها لدى الجماعات العرقية الأخرى"(Bardenat, 1948, p. 8) .

ولا ننسى أيضا أوبان هنري Henri Auban في نص له حول "الأهلي الشمال إفريقي والنزعة البدائية" المنشور سنة 1960، حيث ذهب يترجم بأفضل طريقة فكرة أستاذه وأبوه الروحي أنطوان بورو على أن "الأهلي شمال أفريقي... وبسبب افتقاره إلى الفضول الفكري، فإن السذاجة والانقياد عنده تبلغ درجة عالية؛ وتتناوب بسهولة مع معارضة عنيدة أو ميل متميز للمشاكسة والمطالبة. في مثل هذه الظروف، لا نندهش من فقر نسقية هذياناته... القدرية نفسها تُفاقِم قلة الإقبال لدى غير المتحضرين على العمل، وشراهتهم وجشعهم وعدوانيتهم" (Auban, 1960).

ثم نقرأ نص آخر حول علم النفس الاجتماعي لـ أ.سيرفيه A. Servier الذي أكد فيه على ما لا يُصدَّق: "إن المسلم المقتنع بتفوقه، لا يقبل أي درس من الناحية الفكرية مع ذلك، فالمسلم مشلول. فمخه الذي أُخضِع عبر القرون للطاعة القاسية التي دعا إليها الإسلام، مغلق لكل شيء لم يأت ولم يحض عليه الدين... وكما لاحظنا فإن المسلم البليد المتعلق بدينه لم يتقدم، لقد بقي بلا حراك في خضم التطور الذي مس جميع الحضارات. إن إحدى العلامات البارزة في الإسلاموية Islamisme، هو تجميد الأجناس التي استعبدتها ضمن حدود بربريتها الأصلية... إنه "المسلم" متمرد على كل حضارة" (Servier, 1923).

هؤلاء الأطباء، كانوا مدافعين فعلا عن مقومات مجتمعهم الاستعماري، تغذوا وترعرعوا في اطار نظريات ديناميكية و إيديولوجية محفزة للتمايز. حت أن أسسوا عليها غزو الجزائر، ثم بنوا بواسطتها مبدأ الحق في إبادة الشعوب باسم الحضارة. حتى بعض النخب المفكرة أيدت ذلك و كان دورها المساهمة في رسم صورة مزيفة من خلال تقزيم الجزائري وإعطائه صورة غير إنسانية قريبة من مراكز الحيوانات الدنيا. فعلا، قدم الأستاذ أنطوان بورو A. Porot للعسكريين وغيرهم بصفته طبيبا مختص، مادة خام من الأفكار لتبرير المجازر في حق الإنسانية. اعتبر الجزائريون مواضيع بخسة، فراح بكل حرية يطبق نظريات لا انسانية كمعايير "علمية" للتمكين الاستعماري. إنه تاريخ الكيل بمكيالين قد سادته التناقضات والجدل بين مجتمعان يحملان ثقافات مختلفة ومتباعدة جملة وتفصيل. بعد مائة واثنين وثلاثين سنة بلغ السيل الزبى فثار الأهلي على المستعمر باللغة التي كان مجبرا أن يفهمها ألا وهي لغة "الرشاش لحنا " كما ذكرها مفدي زكريا.

6. فرانس فانون Franz Fanon: الطبيب الثوري تاريخ الطب العقلي الاستعماري

قبل أن نتكلم عن أعمال الطبيب الثائر ف. فانون، علينا أن نقدم لمحة تاريخية وجيزة حول هذا المناضل الرمز ، حيث ولد في 20 جويلية 1925 بفور دي فرانسFort-De-France بالمارتينيك، وهو الطفل الخامس في عائلته التي كانت تحتوي على ثمانية أفراد. درس في ثانوية Victor-Schoelcher ثم في سنة 1943 التحق بالقوات الفرنسية الحرة و دخل الجيش بعد انضمام Les Antilles لفرنسا. بينما هو جندي في صفوف القوات الفرنسية للجنرال Lattre de Tassigny أصيب بجروح قرب مدينة فوج Vosges الفرنسية. تحصل على شهادة الباكالوريا ثم سجل ليدرس بكلية الطب في جامعة ليون. لكنه لم يكن محبا إلا للعلوم الطبية بل كان لديه شغف معرفة العلوم الأخرى أراد أن يزاول في نفس الوقت دروس في علم النفس و الفلسفة وخاصة محاضرات الفيلسوف الكبير ميرلو بونتي Maurice Merleau-Ponty. تحصل على شهادة الطب ثم تخصص في مجال الطب العقلي العصبي آنذاك حتى أن عين في سنة 1953 رئيسا لمصلحة الطب العقلي بمستشفى البليدة جوان فيل Hôpital de Joinville بالجزائر.

لكن حبه ومثابرته في العمل، جعله يدخل طرق ومناهج علاجية متعددة منها العلاج النفسي الاجتماعي La sociothérapie والعلاج النفسي النظامي psychothérapie institutionnelle فطبقهما في ميدان عمله وهو بجانب أطباءه المقيمين، حاول أن يتعرف معهم على الأساطير، العادات والتقاليد الاجتماعية للجزائريين. اهتم بجدارة كبرى للغاتنا وتقاليدنا الاجتماعية حتى أن يعرف بدقة ماهية العلاج والتكفل النفسي. قد تهيئا فكريا منذ بداية الثورة المسلحة عام 1954، بالانضمام إلى المقاومة الثورية. أتيحت له الفرصة بعد اتصاله مع ضباط جيش تحرير ومع الإدارة السياسية لجبهة التحرير الوطني. التقى مع رفقاء في الكفاح ألا وهما المجاهدان: عبان رمضان وبن يوسف بن خدة، وذلك مباشرة بعد تسليم رسالة استقالته لـ Robert Lacoste في شهر نوفمبر 1956 من منصبه كرئيس بمصلحة الطب العقلي لمستشفى البليدة لحاكم الجزائر.

ها هو النص الكامل للرسالة حتى أن يعرف القارئ ما كان يفكر هذا الطبيب البطل المناهض للاستعمار الفرنسي : "سيدي الوزير، بناء لطلبي، ووفقا لقرار رسمي بتاريخ 22 تشرين الأول/أكتوبر 1953، أراد السيد وزير الصحة العامة والإسكان أن يضعني تحت تصرف السيد الحاكم العام في الجزائر لتعييني في مستشفى للأمراض العقلية في الجزائر. فتم تنصيبي في مستشفى البليدة . جوانفيل للأمراض العقلية في 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1953، فبدأت أمارس مهمة طبيب، رئيس قسم فيه منذ ذلك التاريخ. ورغم أن الظروف الموضوعية لممارسة طب الأمراض العقلية في الجزائر تشكل لوحدها تحديدا للعقل السليم، فقد تبين لي أنه لابد من بذل جهود للحد من فساد نظام تتعارض مبادئه العقائدية بشكل يومي مع الأبعاد الإنسانية الحقيقية، فكرست نفسي بشكل كامل لخدمة هذا البلد وسكانه لمدة ثلاث سنوات. ولم أوفر جهودي ولا حماستي. ولم يبق أي جزء من عملي إلا طالب ببزوغ عالم متين، وتلك غاية يتمنى الجميع تحقيقها. ولكن ما مصير حماسة المرء وقلقه إذا كان الواقع اليومي منسوجا بالأكاذيب والنذالة واحتقار الآخر. وما مصير النوايا إذا كان تجسيدها مستحيلا بفعل انعدام المشاعر وعجز الفكر وكره سكان هذا البلد الأصلين؟. المرض العقلي هو أحد السبل المتاحة أمام المرء لفقدان حريته. ويمكنني القول إني من على هذا التقاطع شعرت بالرعب حين تبين لي مقدار الحرمان لدى سكان هذا البلد. وإذا كانت المعالجة النفسية تقنية طبية هدفها أن تسمح للإنسان بعدم البقاء غريبا عن محيطه، فعلي أن أؤكد أن العربي المحروم دوما في بلده يعيش في حالة ضياع مطلق لشخصيته. وما حالة الجزائر؟ يجري

فيها انتزاع منظم للإنسانية. ولكننا كنا نريد برهاننا العبثي أن ننشئ بأي ثمن بعض القيم، فيما كان غياب القانون وعدم المساواة وقتل الناس الجماعي اليومي مشرعة كلها كمبادئ قانونية. كما تعارضت البنية الاجتماعية القائمة في الجزائر مع كل محاولة لإعادة الفرد إلى مكانه الصحيح. سيدي الوزير، نصل أحيانا إلى وقت يصبح فيه التشبث مثابرة مرضية. فلا نرى نافذة أمل مفتوحة على المستقبل، إنما حفاظا غير منطقي على موقف ذاتي منقطع بانتظام عن الواقع. سيدي الوزير، إن الأحداث الحالية الدامية في الجزائر لا تشكل فضيحة لمن يراقبها. فهي ليست ناجمة عن عارض طارئ أو عن عطل في النظام. إن الأحداث في الجزائر تشكل النتيجة المنطقية لمحاولة غسل دماغ جماعي باءت بالفشل فليس من الضروري أن يكون المرء عالما نفسانيا ليتبين وراء طيبة الجزائري الواضحة وخلف تواضعه البسيط حاجته الأساسية إلى الشعور بالكرامة. ولا حاجة للاستغاثة بشكل من أشكال المواطنة عند بروز ظواهر لا يمكن احتواؤها. وتكمن وظيفة البنية الاجتماعية في إنشاء مؤسسات تقلق على مصير الإنسان وحين يرغم مجتمع ما أعضاءه على اللجوء إلى حلول يائسة، يصبح مجتمعا غير قابل للاستمرار، مجتمعا لابد من استبداله.

ومن واجب المواطن أن يقول ذلك صراحة. فلا يمكن في هذه الحالة أن تطغى أي أخلاق مهنية ولا أي تضامن طبقي ولا أي رغبة في حل المصاعب الداخلية بشكل سري. ولا يمكن التسامح في مسألة اللجوء إلى أي خداع وطني موهم عوض المطالبة بالفكر الحر سيدي الوزير، إن قرار معاقبة المشاركين في إضراب 5 تموز/ يوليو 1956 يبدو لي إجراء مخالفا للمنطق بالكامل. وبما أن الإرهاب قد مورس على أشخاص المضربين وعائلاتهم، كان لابد من تقدير موقفهم وإيجاده طبيعيا نظرا للجو السائد. وبما أن امتناعهم عن العمل يترجم تيارا فكريا جامعا واقتناعا لا رجوع عنه، فكل موقف معاقبة تجاههم سيكون حتما موقفاً اعتباطياً لا تأثير له وغير ضروري وعلى أن أقول إني لم أجد الخوف سمة غالبة عند المضربين، إنما الغالب بالأحرى كان القرار المحتم لإحياء عصر جديد من السلام والكرامة عبر التزام الهدوء والصمت وعلى العامل في المدينة أن يشارك في التظاهرة الاجتماعية إنما عليه أن يقتنع بجودة هذا المجتمع المعاش. ولكنه وصل إلى وقت أصبح فيه السكوت كذبا كما أن النوايا الرئيسية بالعيش الفردي لا ترضى بالتعرض الدائم لأبسط القيم وهكذا، فإن ضميري يشهد منذ شهور طويلة مشادات لا ترحم. وخلاصتها الرغبة في عدم اليأس من الإنسان أي من نفسي وقررت ألا أتحمل مسؤولية بأي ثمن وبحجة خادعة مفادها أن هذا أفضل ما يمكنني إنجازه فلهذه الأسباب كلها، لي الشرف سيدي الوزير أن أطلب منكم قبول استقالتي وإنهاء مهمتي في الجزائر. وتفضلوا بقبول فائق احترامي وتقديري" (Fanon, 1952b).

في شهر جانفي 1957 نفي فرانتز فانون رسميا من الجزائر من طرف السلطات العسكرية الفرنسية و التحق مباشرة بمنضمة التحرير الوطني في تونس ليساعد رفقائه على تحرير صحيفة المجاهد. لكن في سنة 1959 عين كمبعوث خاص للجبهة إلى المؤتمر الإفريقي الذي أقيم بأكرا CONGRES PANAFRICAIN D'ACCRA تلك هي السنة التي نشر فيها كتابه عند مطبعة ماسبيرو بعنوان" العام الخامس للثورة الجزائرية". وفي شهر مارس عين كسفير في غانا Ghana للحكومة المؤقتة الجزائرية. لكن انتمائه ومساندته السياسية للثورة المسلحة، كلفه عدة محاولات اغتيال، لكن مرضه باللوكيميا leucémie جعله يذهب إلى واشنطن بالولايات المتحدة للمعالجة و هناك كتب كتابه قيم تحت عنوان "المعذبون في

الأرض" Les damnés de la terre (Fanon, 1961)، إلى أن وافته المنية بعد مرض عضال يوم 6 ديسمبر 1961 أي قبل بضعة أشهر لاستقلال الجزائر وذلك عن عمر يناهز 36 سنة.

دفن في مقبرة الشهداء قرب بلدية عين الكرمة بولاية الطارف، خلف ورائه زوجته السيدةMarie-Josèphe Dublé التي توفيت في يوم 13 جويلية 1989 ودفنت في مقبرة القطار وسط الجزائر العاصمة مخلفان ورائهما ابن يسمى Olivier وبنت تسمى Mireille. بعد وفاته شهد له التاريخ على أنه من أكبر الأطباء المثقفين الذين كرسوا حياتهم في الناضل من أجل تحرر الشعوب الافريقية، كل من يقرأ كتبه العديدة يعترف له بالتمرد والرفض للمستعمر وتصرفاته، بداية من كتاب "بشرة سوداء، وأقنعة بيضاء" (Fanon, 1952a). إلى كتاب "المعذبون في الأرض" (Fanon, 1952b).. جميع أعماله تضع وجها لوجه الخير ضد الشر، الحرية ضد الاضطهاد والمستعمِر ضد المستعمَر، تعرض لهذه التناقضات بالشرح المعمق، وهو في يعمل في سط المؤسسة الاستعمارية التي ثار على مبادئها الخاطئة. خاصة عندما وجدها متناقضة مع شعارتهم الإنسانية المزعومة.

لقد فهم فانون مبكرا معادلة المستعمر الفرنسي المحتل وهو يشتغل طبيبا للأمراض العقلية حيث توصل بسرعة فائقة كيف يوجه النقد للاحتقار الذي يكنه المستعمِر للمجتمع الجزائري الأصلي. مجمل أعماله الأدبية كانت تعتبر كاستجابة حية ضد أفكار الذين هم من قبله أطباء عنصريون. إنه حقا طبيبا ثائرا، أفكاره تندرج ضمن المسار الطبي العقلي النقيض لأعمال أنطوان بورو و المدرسة الطبية العنصرية الاستعمارية. خلال مؤتمر أطباء الأمراض العقلية والعصبية الناطقين بالفرنسية، المنعقد عام 1956 سلط فانون الضوء على عبثية استخدام تجربة الإدراك الموضوعي من خلال استعمال الاختبار الاسقاطي T.A.T. وأكد أن هذه التجربة لا تصلح في الممارسة السيكولوجية عند الشخصية الجزائرية لأسباب ثقافية محضة. عكس ما كان يروج له الأستاذ أنطوان بور، رفض فانون المنظومة الاستعمارية بكل جوانبها، ولو أن حياته كانت قصيرة جدا لكنه قضاها في التعريف بمواقفه الثورية من خلال نقد مرير لأطروحات مدرسة الجزائر الطبية. فما تجاهله أنطوان بورو وما تنكر له، قام فانون بالتنديد ضده، بشراسة لا مثيل لها في جل كتبه المتعددة. ما كانت تروج له المدرسة الجزائر الطبية في تعظيم الصورة الخيالية للأب الروحي أنطوان بورو، قام فانون بالتحريض و التمرد عليه يحمله من نضرة استبدادية، ندد فانون للنضال ضد العدوانية والتعسف بكل أشكالها حتى أن انخرط بعمق ضد الأساليب الاستعمارية وأحدث القطيعة إلى الأبد، تلك هي المعادلة النفسية التي تنكرها ولم يقرأها المستعمر الفرنسي، فكان من البديهي أن يصطدم في يوم ما بمفكر ضدها. ان هذه الملابسات وغيرها هي التي دفعت فانون لتحطيم الأحكام المسبقة التي أدرجها المستعمر على أهالي شمال إفريقيا.

فجعلته يصبح من الأوائل اللذين حفروا قبر المستعمر الفرنسي و دفنت معه كل المقاربات الإيديولوجية التي عمل بها الأستاذ أنطوان بورو و أتباعه الأطباء من مدرسة الطب العقلي الاستعمارية بالجزائر. فانون ردّ بفكره الرائد أن الطب العقلي المبني على أفكار عنصرية لا مجال لاستمراريته و صيرورته ، لأن النموذج النفسي المرضي الغربي المبني على النزعة البدائية ليس غاية في حد ذاته و لن يصلح كقاعدة للعلاج في الطب العقلي. لأن المقاربات النزيهة لمعرفة المرض العقلي، يجب أن تمر عبر تفهم الثقافة التي نشاء عليها المريض، لكن هذه الثقافة أسيء تصورها وجرى التنكر لها من قبل المستعمِر. فهاذا هو الأمر الذي دعم الوعي الثوري عند الأهلي الجزائري من بين أمور تاريخية أخرى. كان فانون من

رواد المفكرين اللذين حثوا الشعوب على الثورة ضد كل من يمس هويتهم و ثقافاتهم، فكان ثائرا من مركزه الفكري الازدواجي على أنه مثقف ثوري وطبيب انساني، لقد برهن ببراعة كيف أن عدم التوازن الاجتماعي الذي صنعه المستعمر ينتهي إلى الانهيار التام. وأن الشعوب المستعمرة التي تعاني من ويلات الاضطهاد، القهر و العدوان، لا يؤدي وعيها إلا على أن تثور ضده و تنتزع استقلالها بالقوة. لكن تبقى هيمنة الاستعمار الجديد و هي أكبر خطورة من خلال ثوراته المضادة، لهذا تنبأ فانون عن هاذا الخطر فعبر عن ذلك بكلمات هادفة يقول : "سيتوجب علينا ولسنوات أخرى، تضميد الجراح الكثيرة وبعضها لن تمحى، التي سببها لآبائنا الاجتياح الاستعماري. إن الإمبريالية التي تصارع اليوم ضد حركة تحرير أصيلة لتحرير الناس، قد تركت هنا وهناك براعم متعفنة، علينا بلا هوادة أن نكشف عنها ونقتلعها من أراضينا ومن عقولنا".

7. خاتمة:

خلال مائة واثنين وثلاثون سنة ومدرسة الطب العقلي بالجزائر العاصمة تواصل تعريفها لـ"الأهلي الشمالي إفريقي" L'indigène nord-Africain كأنه كائن متواجد في منتصف التطور بين إنسان من عرق دوني وإنسان أوربي متعالي في بنيته الشخصية. هذه المقارنة الخاطئة هي التي أدرجها أطباء المستعمر في تعريفهم العنصري ثم برروا شرعيتها عبر العديد من مقالاتهم "العلمية"، وضعوا من جرائها الأهلي في مرتبة أضعف الكائنات الحية، فقالوا أنه يفتقر إلى الوظائف العصبية العادية التي توجد عند أي إنسان عادي. ثم أكدوا أن لديه فص دماغي ما قبل جبهي ناقص في تطوره الوظيفي، كما زعموا أيضا على أنه يفتقر إلى الأخلاق والذكاء. الكثير منهم راح يؤكد في أطروحاتهم لنيل شهاداتهم الطبية أن "الأهلي" يتميز بالصفات الدنيئة التالية: "العقل الطفولي"، "غياب الشهية العلمية"، "الافتقار إلى الاعتدال"، "الانقياد"، "الخضوع إلى الغرائز"، "عبارة عن كتلة تافهة من البدائيين شديدو الجهل والسذاجة في غالبيتهم"...الخ. ان هذا الخطاب المحتقِر أملته فداحة العنف وبرروه بغطاء "الدليل العملي". إنها عبارات تثبت عن تشبثهم العنيد لنظريات بدائية تخلت عنها شعوبهم لكنهم طبقوها بحذافيرها على الشعوب المغلوبة عن أمرها. حتى أن شيدوا لها هياكل استشفائية على اثرها جرى تدشين مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة سنة **1938** وهي المؤسسة نفسها التي اشتغل فيها فرانس فانون Frantz Fanon كطبيب رئيس مصلحة و معارض قوي لما سمي بـ"مدرسة الطب العقلي للجزائر".

لم تتخل ولا يوم واحد على وصف الجزائري الأصل بالنعوت المنحطة نذكر على سبيل ذلك بعض من هاته التافهات: "متبجح، كذاب، لص، كسول، معتوه، هستيري، يخضع لاندفاعات قاتلة غير متوقعة، مجرم بالطبع، يتميز بمخ ضعيف التطور، عبارة عن كائن بدائي خامل وغرائزي يتحكم فيه دماغه الوسطي، بطيء الفهم والتفهم، بقي في مؤخرة الركب الإنساني، ينتمي إلى الأجناس المحكوم عليها بالانقراض"...الخ. هذا ما دفع فانون على مدى قصر حياته التنصل من هاته الأطروحات العرقية فذهب يقدم صورة أخرى عن "الأهلي" الذي وصفه بالمضطهد، والمنبوذ والمجرد من ثقافته والمستلب لأدنى حقوقه فوق أرضه. مردّدا عليهم على انه انسان ككل البشر له ما لكم وعليه ما عليكم، فطرد من مستشفى البليدة. فاحتضنته الجبهة و نقلته إلى تونس لمواصلة نشاطاته الداعمة للتحرير الوطني بوصفه

سفيرا للحكومة المؤقتة الجزائرية في إفريقيا حتى أن وافته المنية على إثر إصابة بسرطان الدم عام **1961** وعمره لا يتجاوز **36** عاما. لكن موروثات العنف الاستعماري تتواصل مع الأسف حتى يومنا هذا، لا زلنا نقرأ أحيانا، بريشة بعض الأطباء المختصين في الأمراض العقلية الفرنسيين المتشبثين بالنظريات الشبه عنصرية Ethnopsychiatrie تشخيصاتهم التعسفية عندما يصفون شعوب شمال افريقيا وغيرهم على أنهم مرضى ليسوا كالأوربيين يعانون أصلا من "الهستيريا الذكرية" و "الوباء المتوسطي".

يشهد التاريخ أيضا أن السيدة أليس شركي Alice Cherki الطبيبة في نفس الاختصاص وصديقة فانون في المهنة والنضال، هي كذلك لم تتردد في وصفها للمستعمر على أنه ظاهرة مهيمنة ونابذة ومقصية للقيم الاجتماعية للمستعمَر. في مقال لها كتبته بعنوان "صمت العنف الاستعماري وعسر المنفى النفسي" Silence des violences coloniales et empêchement d'exil psychique تقول بكلمات هادفة: "حاليا ومع صدور شهادات وكتابات هي غالبا مؤثرة، وأطروحات وغيرها، لم يعد بمقدورنا أن نتجاهل ما كانت عليه حرب طويلة معقدة وعنيفة، ضمن منظور تاريخي تعرضت فيه الروح الإنسانية للانفلات. إلا مفكر عمل تحت إشراف رجال، يبدو أنهم لم يكونوا على استعداد للقيام ببعض الأفعال، ومع ذلك فقد حدثت هذه الأفعال بهذا القدر من الانفلات، انفعالات الأحاسيس الهدامة وجد فيها الكثير من الناس أنفسهم رهن التغييب والاحتجاز والخيانة من مؤسسة رمزية قاتلة" (Cherki, 2004).

8. المراجع:

Ardii, D.C., (1926). *De l'impulsivité criminelle chez l'indigène algérien*. Doctorat en médecine, Faculté de Médecine d'Alger, Algérie.

Aubin, H. (1960). Psychopathologie de l'indigène Algérien. In Porot, A. *Manuel alphabétique de psychiatrie*. Paris : PUF.

Begue, J. M. (1939). *Un siècle de psychiatrie en Algérie (1830-1939)*. Mémoire pour le CES de psychiatrie, Faculté St-Antoine, France.

Boigey, M. (1908). Etudes psychologiques sur l'islam. *Annales médico-psychologiques*, 5-14.

Brissot, F. (1959). Propos sur la mentalité des musulmans Nord- Africains. *Annales Médico-psychologiques*, 2, 912-913.

Berthelier, R. (1994). *L'Homme maghrébin dans la Littérature Psychiatrique*. France : L'Harmattan.

Cherki, A. (2000). *Frantz Fanon, Portrait*. France : Le seuil.

Constants, M. (1873). Débat sur les conférences de VOISIN. A sur la pathologie mentale des Algériens. *Annales Médico-psychologiques*, 9, 492.

Costedoat, A. L. (1934), Les troubles mentaux chez les militaires indigènes musulmans d'Afrique du nord. *Archives de médecine et de pharmacie militaire*, 2, 231-52.

Fanon, F. (1952a). *Peau noire, masques blancs*. France : Le seuil .

Fanon, F. (1952b). *Le syndrome Nord- Africain.* France : Esprit.

Fanon, F. (1961*). Les damnés de la terre*. France : Maspero.

Kacha, F., Moussaoui, D., & Doukhi, S. (1987). *Manuel de Psychiatrie du Praticien maghrébin*. France : Masson.

Grandmaison, O. L. (2005). *Coloniser – Exterminer*. France : Fayard

Laoudj, M. (2012). *La psychiatrie coloniale en Algérie*. Algérie : Casbah édition.

Lemanski, W. (1913). *Mœurs arabes, Scènes vécues*. France : Albin Michel.

Mass, G., Jacquart, A., & Ciardi, M. (1987). *Histoire illustrée de la psychiatrie*. France : Bordas.

Meilhon, (1896). L'aliénation mentale chez les Arabes. *Annales, médico-psychologiques,* France.

Moreau, D. T. (1843). Recherches sur les aliénés d'orient. *Annales médico-psychologiques*, France.

Pelecier, Y. (1961). Evolution sociale et santé mentale en Algérie. *Hygiène* Mentale, France.

Pierson, C. A. (1965). Paléophrénie réactionnelle : Physiopathologie de l'impulsion Morbide en milieu Nord-Africain. *Maroc Médical*, 360.

Porot, A. (1918). Points sur la psychiatrie du malade mental musulman. *Annales Médico-psychologiques*, 9, 377- 384.

Porot, A., & Arrii, C. (1932). D'impulsivité criminelle chez l'indigène algérien. *Annales Médico-psychologiques*, France.

Porot. A., & Sutter, J. (1958). Le primitivisme chez l'indigène algérien. *Annales Médico – psychologiques*, France.

Servier, A. (1923). *L'islam et la psychologie des musulmans*. Paris : Chalamel.

Van Gennep, A. (1911). Études d'ethnographie algérienne. *Revue d'Ethnographie et de Sociologie*. Paris : E. Leroux.